المحاضرة الثَّالِثَة عشرَة

قضايا النقد عند حازم القرطاجني

الأستاذان: ـ زروقي عبد القادر

ـ داود امحمد

المحاضرة الثالثة عشرة قضايا النقد عند حازم القرطاجني

موقف حازم من العبارة الشعرية

مما لا جدال فيه أنّ قضية البناء اللغوي أو صياغة النصّ الشعري قد سجلت حضورها وبشكل مكثف في المنظومة النقدية العربية، و كان حازم أكثر وعياً من طرح الفلاسفة المسلمين، وكذا طرح أرسطو قبلهم فيما يتعلّق بخصوصية بناء العبارة في العمل الشعري، لذا ركَّز على ضرورة الاعتناء ببناء هذه العبارة على المستويين . الاختيار والتوزيع . بل كانت هذه نقطة البدء عنده في مقارنته بين شعراء زمانه وشعراء الرعيل الأول أو الفحول، ورأى أن هؤلاء اهتموا بالبناء الشعري فاختاروا مباني ألفاظهم ونسَّقوا مواضعها ونظمها، الأمر الذي يفتقد عند أولئك الذين لقبهم بأدعياء الشعر الذين "لم يوجد فيهم على طول هذه المدّة من نحا نحو الفحول ولا ذهب مذاهبهم في تأصيل مبادئ الكلام وإحكام وضعه وانتقاء موادّه التي يجب نحته منها فخرجوا بذلك عن مهيع الشعر ودخلوا في محض التكلم" منهاج البلغاء، ص:10.

مواصفات اللغة الشعرية وماهيتها

تَحتَّلُ اللغة الشعرية مكانةً راقيةً في الدِّراسات النقدية العربية القديمة، نظراً لِما حظيت به من اهتمام النقاد اعتماداً على نظرتهم للشعر التي تتلخص في اعتباره صناعة قولية متميِّزة عن الصناعات الأخرى، بما تمثله الألفاظ فيها من مادة أساسية، وهو ما يستوجب على الشاعر أن يُحْكِم هذه الصناعة من خلال التأليف والتشكيل اللغوي الذي يكفل له إنشاء لغة متميزة ذات علائق متميزة بين مكوناتها، ليؤّهلها ذلك إلى الاختلاف عن اللغة العادية انطلاقاً من المكونات ذاتها، (الأصوات، الحروف، الألفاظ، التراكيب، الصور، الدلالات...)

نظام العبارة الشعرية عند القرطاجني

لقد اتضح لنا بما لا يدع للرِّيبَةِ مجالاً حول إثبات الحقيقة التي تؤكّد اختلاف "اللغة الفنية عن اللغة العادية كثيراً، وذلك من حيث المبنى" عبد الواحد حسن الشيخ، البديع والتوازي، ص:3.

هذا ما يؤكّد ابتداء أهمية التأليف الشعري عند العرب إذ "ليس كلّ من عقد وزنا بقافية فقد قال شعراً، الشعر أبعد من ذلك مراماً وأعزُّ انتظاماً" المرزباني، الموشح مآخذ العلماء على الشعراء، ص:547.

فهذا يدلّ على صدارة الاهتمام باللغة الشعرية في التفكير النقدي العربي بما يحقق لهذا الانتظام من الأسباب الفنية التي توفر للعبارة الشعرية اعتلاء على باقي المميزات الشعرية الأخرى.

وإذا ما نظرنا إلى درجة هذا الاهتمام عند حازم القرطاجني فإنّنا سنجده "الوحيد من بين المتأثرين بأرسطو الذي نظر إلى العبارة الشعرية من زاوية جمالية ونقدية تعبر عن قيمتها في البناء الشعري" صفوت عبد الله الخطيب، نظرية حازم النقدية والجمالية، ص:184.

فحازم يقنّن الكيفية التي تُدرَس بها هذه العبارة بجعله "النظر في صناعة البلاغة من جهة ما يكون عليه اللفظ الدال على الصور الذهنية في نفسه، ومن جهة ما يكون عليه بالنسبة إلى موقعه من النفوس من جهة هيأته، ودلالته ومن جهة ما تكون عليه الصور الذهنية في أنفسنا ومن جهة مواقعها من النفوس ومن جهة هيآتها ودلالاتها على ما خارج الذهن ومن جهة ما تكون عليه في أنفسها الأشياء التي تلك المعاني الذهنية صور لها، وأمثلة دالة عليها ومن جهة مواقع تلك الأشياء من النفوس" منهاج البلغاء، ص:17.

ولذلك فهو يربط الشعر رأساً بكيفيات مواقع المعاني من النفوس، وكيف يمكن لهذه المعاني أن تكون قويةً أو ضعيفةَ الانتساب إلى طرق الشعر المألوفة وأغراضه المعروفة عند متذوّقي الشعر منهاج البلغاء، ص:19 .

جرّاء هذا العرض يمكننا تحديد نظام العبارة عند القرطاجني وفق ما يطرحه من آليات أسلوبية تتنزّل بمثابة الخصائص الشعرية والمواصفات الفنية للعبارة اللغوية في الخطاب الأدبي:

مبدأ اختيار مواد العبارات

1. مفهوم الوحدة العضوية في تفكير القرطاجني

إذا كنّا قد بينّا سابقاً أنّ نقدنا العربي القديم لم يخلُ من طروحات ورُؤىً قُدِّمت كأدبيات حول قضية تماسك النص وانسجامه بدءا من الجاحظ وابن طباطبا والحاتمي، فمن المنتظر من حازم أن يهتم أكثر بفكرة القصيدة باعتبار القصيدة كلاًّ واحداً وبوحدتها العضوية. هذه الوحدة العضوية التي طورتها النظرية الإغريقية والتي لم تكن غائبة في النظرية العربية، لذا يعدُّ ما جاء به حازم وصفاً دقيقاً للكيفية التي يتماسك بها النص لذا كان "أول ناقد عربي قدّم وصفاً مفصلاً لتلك الكيفية بدءاً من الفصل الواحد مروراً بالفصول وانتهاء بالتسويم والتحجيل" محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص:07.

هذا فضلاً عن اهتمامه بما كانت عليه القصيدة العربية من التقسيم المعروف من طول وقصر وتوسّط بينهما، لذا فهو يُسهم في تقسيم القصيدة إلى بسيطة ومركبة، والأولى منهما "تكون مدحاً صرفاً أو رثاء صرفاً" أما "المركبة هي التي يشمل الكلام فيها على غرضين مثل أن تكون مشتملة على نسيب ومديح"، وهو يفضّل النوع الثاني رغم ما تمثله من تعدّد في الأغراض ليُثبت بعدئذٍ أن هذا التّعدُّدِ ما كان يوْماً ما حاجزاً ومانعاً من توفر الوحدة في القصيدة العربية إنْ هو أُحكِم وأدُرِك توظيفه بعلم وحسن تصرف؛ لذا فهو يعتبر النوع

المركّب من القصائد "أشدّ موافقة للنفوس الصحيحة الأذواق لما ذكرناه من ولع النفوس بالافتنان في أنحاء الكلام وأنواع القصائد" منهاج البلغاء، ص:303.

كي تكتسب اللفظة صفة الحسن والجودة في الخطاب الشعري ينبغي أن تكون ذات حسن "في ملافظ حروفها وانتظامها وصيغها ومقاديرها واجتناب ما يقبح في ذلك" منهاج البلغاء، ص:222.

كما يجب أن تكون المادة المختارة "بحسب ما يحسن منها باعتبار طريق من الطرق العرفية، وتجنب ما يقبح باعتبار ذلك" منهاج البلغاء، ص:222.

2. **حسن الوضع اللفظي وتلاؤمه**

ومن مظاهر هذا الحسن "أن يؤاخى في الكلام بين كلم تتماثل في مواد لفظها أو صيغها أو مقاطعها فتحسن بذلك ديباجة الكلام" منهاج البلغاء، ص:224.

ويحدث ذلك من خلال التلاؤم بين الحروف ابتداء، إذْ تَأْتَلِفُ "بعض حروف الكلمة مع بعضها" منهاج البلغاء، ص:222.

3. **درأ التكلف وتوعّر الألفاظ**
4. **التآخي بين الكلمات**
5. **وضع الألفاظ إزاء بعضها تناسباً واقتضاءً**

شعرية البناء الأسلوبي عند حازم

تناول حازم البناء الفني للنص الأدبي على خلاف تناول أرسطو له، حتى وإنْ كنّا نقرُّ باطلاعه على ما أنتجه أرسطو سواء من خلال ما قدّمه المترجمون أو ممّا فهمه واستخلصه الفلاسفة المسلمون في شكل شروحات متعلّقة بقضية الوحدة؛ فهو يسير في ركاب الاهتمام بالبناء الشعري أو العبارة الشعرية، هذا الاهتمام سجّل تواجده قبل حازم مع أعلام النقد العربي القديم، وهم الذين قلنا عنهم أنهم يمثلون الاتجاه البياني، أثناء انشغالهم بلغة الشعر بكلّ مكوناتها بداية من المقاطع الصوتية إلى اللفظة التي تشكل بمعية أخواتها العبارة الشعرية التي تتضام مع غيرها من العبارات لتؤلف النص.

إنّ من بين ما أثاره حازم أثناء حديثه عن الوحدة انطلاقاً من بداية المنهج الثالث الذي عقده "في الإبانة عمّا يجب في تقدير الفصول وترتيبها ووصل بعضها ببعض وتحسين هيآتها، وما تعتبر به أحوال النظم في جميع ذلك من حيث يكون ملائماً للنفوس أو منافراً لها" منهاج البلغاء، ص:287.

ويتضح جرّاء هذا أن حازماً يربط وحدة النص وانسجامه بملائمة النفوس حتى تضطلع بالتأثير في المتلقي من جهة، وأنه يولي اهتماماً خاصّاً بالفصول التي تشكل بناء القصيدة، وما ينبغي أن تكون عليه من

انسجام حتى تحقق هذه الوحدة الكلية للنص، من جهة أخرى، وذلك بما أردفه للعنوان السابق في المعلم الدالّ "على طرق العلم بأحكام مباني الفصول وتحسين هيئاتها ووصل بعضها ببعض" منهاج البلغاء ، ص:287.

وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا المعلم يشكّل أدق وأحكم مباحث الكتاب، باعتبار أنه تفرد بدراسة وحدة النص الشعري بهذا الشكل المميّز عبر كامل منظومتنا النقدية القديمة، وهو يلمح فيه إلى قضيتين:

1- الفصول وما يتعلق بخصائص بنائها وحسن هيئتها.

2- محلُّ الفصول بالنسبة للنص وعلاقتها بغيرها من الفصول فيما يخص التوالي والترتيب.

لمّا كانت الفصول اللبنة الأساس في بناء القصيدة، . بما يتضمنه الفصل من "بيان معنى ينتقل بعده الكلام إلى معنى آخر" منهاج البلغاء، ص:287.

فوحدة النص عند حازم من خلال هذا الطرح تقوم على وحدة الكلمة بداية، وهي التي تضمن لنا قيام الوحدة، فيظهر لنا النص من خلالها كلاً متكاملاً وهو ما يستوجب مراعاة هذه البنية الأولى في النص "الكلمة" اعتباراً "إلى مادتها وذاتها، واعتباراً بالنسبة إلى المعنى الذي تدلّ عليه" محمّد أبو موسى، تقريب منهاج البلغاء، ص:177.

هذا يعني أنّ مدار الاهتمام بالكلمة له شقان هما:

1- **المادة اللغوية المشكّلة لوحدة الكلمة:** ولعلّ ذلك مما أشرنا إليه فيما يتعلّق بالبناء اللغوي والتشكيل الأسلوبي الراجع إلى تلاؤم الحروف، من حيث مواضعها [هيأتها] وترتيب مكوناتها من حيث التقارب والتباعد والخفة على اللسان، حتى تتّسم بحسن الموقع على السمع.

2- **المعنى [الدلالة]:** وهذا يقتضي تلاؤم المبنى بالمعنى، وتعدد الدلالة واتساعها وهو ما أُشير إليه في قضية "التغيير".

الفصول والتأسيس لشعرية الانسجام

إنّ حديث حازم عن الفصول هو حديث عن التنظير العام للوحدة الفنية من خلال النظم والاتساق المرتبطين بالنص الأدبي في جملته، حيث يضطلع هذا الحديث في ما يرجع وجوباً إلى ذوات هذه الفصول، وإلى ما يجب في وضعها وترتيب بعضها من بعض، وهو ما يعني ضرورة أنْ تتمّ عملية انتقاء مادة الفصول وترتيبها على أن يوالي بعضها البعض الآخر ـ أي يكون الشيء بعد الشيء وليس بينهما شيء من بابهما ـ شريطة أن يتمتَّع كلُّ فصلٍ بنظام خاص، تَتَرَتَّب فيه أبياته ترتيباً حسناً، ثم بعد ذلك يجهد المبدع في استحضارِ بِشكلٍ تتابعيٍّ، ما ينبغي أن يوفّره كي يربط بين تلك الفصول مجتمعة، ولا يتأتّى ذلك من خلال حازم إلاّ بتلك القوانين الأربعة الكفيلة بتحقيق مبدأ التناسب في القصيدة، هذا المبدأ الذي يجسد الوحدة الفنية عبر كامل النّص، وقد حدّدَ هذه القوانين كالآتي: ينظر، منهاج البلغاء، ص:288 وما بعدها.

القانون الأول: في استجادة مواد الفصول وانتقاء جوهرها

القانون الثاني: في ترتيب الفصول والموالاة بين بعضها وبعض .

القانون الثالث: في ترتيب ما يقع في الفصول

القانون الرابع: في ما يجب أن يقدّم في الفصول وما يجب أن يؤخّر فيها وتختتم به.

ختاما نقول:

زيادة على ما عرضنا يمكننا التكلم عن كثير من القضايا التي تطرق إليها حازم القرطاجني في كتابه والتي بإمكاننا سريعا الإشارة إلى بعضها فيما يلي:

أولا: حد الشعر:

لقد تميز حازم عمن سبقه من الفلاسفة المسلمين حينما فصل الشعر عن الوزن فلم يربطه به. وجعل من الخيال الشعري بديلا عن الوزن، وإن الخيال هو ميزة أصيلة وجوهرية في الشعر

ثانيا: الإبداع الشعري:

فقد ربط حازم الإبداع بالأسس النفسية، وأن الطبع ملكة أصيلة عند الشاعر.

ثالثا: الخيال:

لقد جعل حازم الخيال الشعري الجسر الرابط بين المبدع والمتلقي لأنه بمثابة المثير عنده للانفعال فهو من جهة المحفز على القول ومن جهة أخرى الملخص لوظيفه الشعر التي لا تتحقق إلا باستجابة المتلقي.

رابعا: العبارة الشعرية:

وكما قلنا في ما يتعلق بالعبارة الشعرية فإنه جعل من اختيار الألفاظ والمعاني أساس جمالية النص وأن مقومات الصياغة تقوم على عناصر عدة منها على سبيل المثال: المقابلة، المطابقة، التفريع، القياس، السجع...

خامسا: بناء القصيدة:

. وفيها تطرق إلى ضرورة تناسب المطالع والمقاطع مع الأحوال النفسية

سادسا: الأغراض الشعرية:

. وفيها عالج فكرة الأغراض، والأسس النفسية التي تنبني عليها الأغراض الشعرية خاصة غرض المديح، كما تطرق إلى التناسب بين الوزن والغرض، وعلاقة الموسيقى بالغرض والتناسب مع الانفعالات.

هذا غيض من فيض مما أثاره القرطاجني من قضايا نقدية في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء.

المحاضرة الثالثة عشرة: قضايا النقد عند حازم القرطاجني